عادات زيارة الأضرحة و الأولياء

نصيرة قشيوش، نعيمة رحماني
جامعة تلمسان

مقدمة

إن ظاهرة زيارة الأضرحة والأولياء،و بناء القبور، وتقديس الأموات بتقديم الهدايا بغية الاسترضاء قصد النفع أو اتقاء الأذى، ظاهرة لها جذورها التاريخية ،حيث كان الإنسان البدائي يؤمن بوجود قوى مسيطرة ذات قدرة أسمى من قدرته و من قدرة الكائنات المحيطة بيه، فجسم اله يستطيع الوصول إليه بتقديم له القرابين والذبائح بغية التقرب منه ليبعد عنه الشر ويجلب له الحظ السعيد .

وموضوعنا الأساسي هو دراسة بعض الطقوس المتعلقة بالأولياء في منطقة الرمشي. والأولياء في هذه المنطقة مازالوا يتمتعون بمكانة عالية في قلوب الناس إلى درجة أن الثورة على هذا الاعتقاد قد تقابل بالنفور الشديد بل والازدراء في غير قليل من الأحيان.و يحرص بعض الناس على زيارة هؤلاء الأولياء مرة على الأقل في الشهر خاصة الأولياء ذوي الشهرة في شفاء الأمراض كضريح سيدي محمد وسيدي احمد وسيدي بونوار .

والسؤال المطروح هو كيف ترسخت هذه الظاهرة وأصبحت معتقدا شعبيا عند العامة و الخاصة؟

الظاهرة الاجتماعية : زيارة الأضرحة و الأولياء

دخلت الجزائر طرق صوفية مزيفة من الشرق والغرب في عهد المرابطين والدولة العثمانية ،فنصب رجال الدين أنفسهم وسطاء بينهم وبين خالقهم لقضاء المآرب فقدمت لهم الهدايا والقرابين مما جعل هذه الظاهرة تحتل مكانا واسعا في نفوس الشعب.وقبل أن نتوسع في توضيح هذا يجب أن نقدم تعريف لمفهوم الأولياء.

أ. مفهوم الأولياء

ا-في المعتقد الشعبي:هم رجال الله الصالحون يتميزون بالفلاح والتقوى عن سائر الناس ،و لهم القدرة على قضاء المصالح وشفاء المرضى لما خصهم الله به من كرامات و يعتقد الناس فيهم أنهم حماة هذا العالم من نوائب الدهر و دفع الضرر عن قراهم و مدنهم ،كل مدينة كبيرة أو صغيرة محروسة بولي من الأولياء فهو الذي يحميها من الغارات و من نكبات الطبيعة و من طمع الطامعين[1].

ب- مفهوم العقيدي

الولي هو الذي يتولى عبادة الله وطاعته بإخلاص دون أن يتخللها عصيان، والله سبحانه وتعالى يتولاه بالرعاية والكرامة.قال تعالى :إلا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحونون الذين امنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا و في الآخرة [2]. وقال عليه الصلاة والسلام أيضا:"ذهبت النبوة وبقيت المبشرات"[3]. والمبشرات لا تكون إلا للأولياء .

كما يطلق سكان منطقة الرمشي على الأولياء اسم المرابطين. والكلمة مشتقة من الرباط وهو الحصن ويعرف عند الفرنسيين باسم caps de garde الذي كان يلازمه المجاهدون للدفاع عن حدود بلادهم في عهد الدولة المرابطية التي تأسست على أساس ديني، ثم تحول الحصن إلى مكان للعبادة وقيل لمن يقوم فيه مرابط لملازمته الرباط وانقطاعه للعبادة وخدمة الدين ،يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد فاستحق اسم المرابط[4].

عوامل انتشار القبب والأضرحة

أ- الانحطاط الفكري والعقيدي

الانحطاط الفكري والعقيدي الذي عرفته الجزائر في عهد الدولة المرابطية ،قبح فقهاء المرابطين الفلسفة و علم الكلام والنظر فيهما بحجة كراهية السلف لها[5] ونسجوا الأساطير حول شيوخهم فاثروا في عقول الناس.

ب_انتشار الزوايا

أسس المرابطون وأتباعهم الزوايا في الأرياف و المدن، و كان عدد الزوايا والأضرحة يفوق عدد المساجد والمدارس في الجزائر[6]. كما أن هذه الزوايا و الأضرحة كانت لها مكانة مميزة، حيث كانت ملجأ يلجا إليه الهاربون من العقاب والقتل مهما كانت جرائمهم. فقد كان الولاة والعامة يعتقدون في حصانة حمى الزاوية والضريح. ويكفي أن يهرب الجاني إلى هذا الحمى فلا يلحق به احد، و لا يمسه سلطان. وقد وقعت حوادث الفرار إلى ولي داده وزاوية القلعة والثعالبي وغيرها،سواء في ذلك الولاة أنفسهم أو عامة الناس في صلاح الأولياء وقدرتهم على تسليط غضبهم على من يهين حماهم. [7]

ج-خضوع للحكم العثماني

يذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله أن من ابرز ميزات العهد العثماني في الجزائر انتشار الطرق الصوفية وكثرة المباني (الزوايا ونحوها). وليس بغائب عن بالنا أن كثيرا من الطرق الصوفية واسعة الانتشار تحمل اسم احد الأولياء كالقادرية والأحمدية، والشادلية...الخ.[8]

د–تشجيع الاستعمار على زيارة الأضرحة

شجع الاستعمار الشعب الجزائري على زيارة الأضرحة،و على انتشار الشعوذة والدجل بما كان يقدمه لمريدي هذه الحركات من مساعدات مادية ومعنوية متسترا أحيانا ثرة وراء قاعدة الالتزام باحترام عادات وتقاليد ومقدسات هذه الفئة الشعبية، بل لقد بلغ به الأمر أن سعى إلى توظيف الدين الإسلامي عبر بعض أصحاب هذه الزوايا لتحقيق عدد من مآربه و أغراضه و ذلك لإيمانه بما لهذه الزوايا من تأثير روحي على خيال الشعب الساذج وقتئذ.[9]

التقديس والبناء على سطح الجبل

أ. إحياء فكرة تقديس الأموات

إن تقديس الحي للميت ظاهرة قديمة قد الإنسانية. وفي هذا الشأن يذكر العالم تايلور:"إن عبادة الأجداد نشأت من الاعتقاد بالأرواح فالآباء والأجداد في القبائل البدائية بيدهم مقاليد الأمور لأنهم اخبروا بشؤون الحياة،فإذا ماتوا فان أرواحهم ترفرف في سماء الأسرة لتقيها شر النوائب ...هذا الاعتقاد هو الذي حمل البشر على عبادة الأسلاف[10]. إن الاعتقاد بضرورة تقديس أرواح الموتى يفسر لنا مجموعة من الممارسات الدينية التي سادت في المجتمعات التاريخية، وبعض الجماعات المتخلفة المعاصرة، فهذه الأرواح لها الرغبات والميول نفسها التي كانت تنزع إليها عندما كانت تسكن الجسد. لذلك فهم يتقربون إليها بالضحايا والقرابين[11]. كما أن الكرامات التي عايشها الإنسان في الولي ولامسها أثناء حياته هي التي دفعته إلى تقديسه.مثل تحويل شيء إلى شيء آخر مطلوب، التنبؤ بالمستقبل، الحوار مع الجن،الحوار مع الموتى،تسكين الرياح وغيرها.

ب . مظاهر تقديس الأولياء

تتجلى ظاهرة تقد يس الأولياء من خلال السلوكات المعينة التي يقوم بها الإنسان أثناء العبور من قربها أو أثناء الدخول لزيارتها. وأول شيء يلفت الانتباه هو: خلع الزائر النعل والدخول حافي القدمين، ثم إشعال الشموع والطواف حول الضريح في خضوع وإذلال، وتقبيل التابوت، ومسح الوجه بالتراب.كل ذلك اعتقادا منهم لدفع الضرر والأذى وجلب الحظ السعيد. وبعد خروجهم من الضريح، يقدمون نقودا(زيارة)"للمقدم"[12]، وهي بمثابة صدقة في اعتقادهم، لتعود عليهم الزيارة بالنفع، وتحصل البركة،و تحقق أغراضهم و أهدافهم .

ج . ارتفاع مكان الضريح

ما نلاحظه هو أن جل الأضرحة الواقعة في منطقة الرمشي بنيت في أماكن مرتفعة كضريح سيدي احمد،سيدي لحصيني،سيدي ميلود وغيرها. فما السبب في ارتفاع المكان؟ اعتقد أن المكان المرتفع مقدس منذ القدم، إن سيدنا نوح عليه السلام لما دعا ابنه ليصحبه معه في السفينة قال ساوي إلى جبل يعصمني من الماء، ولما طلب سيدنا موسى من ربه المكاشفة قال انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني.أما في المعتقد الشعبي فان الولي يتربع فوق المكان المرتفع ليحمي البلاد ويحرسها من كل شر.

ضريح سيدي احمد

أ. وصف الضريح

يقع ضريح سيدي احمد في الرمشي في مكان مرتفع، له شكل مربع فوقه قبة كبيرة لونها اخضر ،داخله قبر الولي ويوجد وسط صندوق من الخشب وعليه قطعا من القماش الأخضر. ولعل ما يلفت الانتباه هو وجود هدا اللون بكثرة داخل الولي وخارجه. ودلك لأنه في اعتقادهم رمز للخير و النعم . وقال بعضهم عن الخضرة أنها تعني التقرب إلى هؤلاء الأولياء الصالحين، وهو لون الهدوء والخصب والراحة والشفاء، وبعض الناس يجعلون في أيدهم أو في خصر كل واحد منهم خيطا اخضر، طلبا للشفاء ويؤخذ من القماش الذي يغطي ضريح الولي الصالح. فالأخضر رمز صوفي قديم[13].

كما يمثل هدا اللون (الأخضر) لباس الصالحين في الجنة طبقا لقوله: "أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق.(الكهف الاية 31) ويوجد حول الضريح فناء يوجد به أشجار، وفي اعتقادهم أن الولي كان يستظل بظلها ويأكل من ثمارها كشجرة الزيتون والتين وغير ذلك.

ويوجد أيضا بئر قرب الضريح يستقى منه الزوار ليحصلوا على بركته. كما نجد بيوتا مخصصة لإيواء الزائرين القادمين من البعيد، وحول الضريح مقبرة يدفن فيها الموتى، وفي اعتقادهم أن الميت يحضى ببركة الولي.

ب . اختصاص الولي: معالجة الأمراض النفسية والفيزيولوجية

كتخديم الجنون كما يزعمون فيدخلون المصاب بالجن داخل الضريح ويغلقون عليه الباب ويتركونه يصرخ ويبكي حتى يغمى عليه ومن ثم يشفى. معالجة المرأة العاقر، وهناك عين قرب الولي تغتسل فيها المرأة وتترك ملابسها الداخلية وتعقدها في أغصان شجرة العين وبذلك سترزق ولدا في اعتقاد أهل المنطقة.

وتترك حزامها داخل الضريح، وتأخذ القطعة من قماش التابوت وتتحزم به ومن ثم تحمل. وتزويج العانس: تغتسل بعين الضريح وتترك ملابسها الداخلية هناك. ولكن شرط أن تكون جديدة. وهذه الطريقة تجعلها تفك التقاف[14]. وتتزوج قريبا في اعتقاد أهل المنطقة .كذلك معالجة بعض الأمراض الفيزيولوجية كالروماتيزم والشقيقة

وغيرها.أداء اليمين :يقف المتهم مع خصمه أمام الضريح و"يحلف "لتبرئة نفسه.

ج –مواقيت الزيارة

غالبا ما تكون زيارة الضريح "سيدي احمد" يوم الخميس والجمعة وذلك لان يوم الخميس وصف أحيانا بأنه "أنيس" وذلك للاعتقاد بحسن فاله...وتزار في هذا اليوم الأضرحة والمقابر وتوزع الخيرات عن أرواح الموتى[15].كما اختير يوم الجمعة أيضا لأنه يوم عبادة عند المسلمين ويوم راحة. ومن دواعي الزيارة: التبرك، طلب الشفاء للمرضى، المساعدة على قضاء الحوائج وفي بعض الأحيان الخروج للتمتع والنزهة وخاصة في فصل الربيع.

طقوس الزيارة

لابد أن تكون الزيارة مصحوبة بالنية (بش تنفع على حد تعبيرهم)، تدخل النساء إلى الضريح حافيات الإقدام ثم تشعل الشموع و تحرق البخور لتعود الزيارة عليهن بالنفع وتحصلن على البركة و الرضا.و لعل هذه العادات مترسبة في نفسيات الأفراد "منذ عصور ما قبل الإسلام لان الوثنين كانوا يحرقون البخور لآلهتهم ومعبوداتهم تذرعا لها في تحقيق مقاصدهم وكذلك طلبا لرضاها. وبعد مجيء الإسلام، بقيت هذه العادة سارية المفعول وبقي المسلمون يحرقون البخور في المساجد والأضرحة وفي أماكن التبرك قصد تعطيرها تقربا من الله والأنبياء الصالحين و إرضاء الجن" [16].

كما أن استعمال النار يعود "للمعنى الديني للنار فارتبط بتجربة البشر مع قوتها التدميرية، ومن ثم قوتها النافعة...كما ارتبطت الشعلة رمزا للتطهير والطهارة. [17]"

كما دعت طقوس الزيارة إلى التمسح بالتراب وأخذ جزء منه إلى البيت ونرى أيضا على جدران الضريح يد (خامسة) مخضبة بالحناء. ولما سالت "المقدم" عليها قال لي أنها بمثابة عهد يقطعه الزائر على نفسه أمام الولي. ومن طقوس الزيارة أيضا تقديم الضحايا والقرابين وقطع النذور مثل إقامة الوعدة أو شراء أقمشة خضراء أو أواني للولي لقضاء الحاجة. ووعدة سيدي احمد يتولى التحضير لها نساء القرية وهي بمثابة مهرجان شعبي ثقافي يحضرها المداحين وأهل الفروسية حيث ينظمون سباقهم بجانب الضريح ويطلقون البارود من بنادقهم عند نهاية كل سباق.

نظرة الإسلام إلى ظاهرة زيارة الأضرحة وطقوسها يرى الشيخ محمد شلتوت أن واضع الشموع والمناديل على مقامات الأولياء فينبغي أن يعرف أن الدين لا يعرف شيئا يقال له مقامات الأولياء سوى ما يكون للمؤمنين المتقين عند ربهم من درجات... وأن قبورهم كقبور سائر موتى المسلمين ،يحرم تشييدها و زخرفتها وإقامة المقابر عليها و تحرم الصلاة فيها وإليها والطواف بها ومناجاة من فيها والتمسح بجدرانها وتقبيلها والتعلق بها...إلى آخره"[18].

ويقول احمد شهاب الدين بن احمد نور الدين في النهي عن حمل الشموع إلى أضرحة الأولياء:

واقصد هديت تلكم الربوعا ولا تحمل معك الشموعا
إن الشموع سنة النصارى فخالف اليهود والكفارا
وإن حملت فاحمل البخورا إن البخورا يجلب السرورا
وزد عليه انتشار العطورا حباك ربي عنده قصورا

ويقول أيضا في النهي عن التمسح بالقبور وتقبيلها:

ولا تضع يديك فوق القبر أو تمسح الضريح خد الأمرا
ولا تقبل يا أخي الضريحا وإن شفا بسره الجريحا [19].

خاتمة

نختم هذا البحث بقول نور الدين طوالبي: "إن تقديس الأموات وتقديم الولاء لهم يفضي إلى الشرك أو الحرام مهما كان المستوى الذي يتموضعون فيه،و مهما تكن الصفة الحقيقية للنعمة التي استحقوها من الله وفي الواقع يرمي بالحرام كل من يعود إلى عبادة أي إنسان ميت أو حي. ومن ذلك مثلا، بناء القباب إكراما للأولياء الزيارة الطقسية لأضرحة الأولياء، وفوق ذلك، إطلاق العبارات التعزيمية الدينية المرافقة لها ،و يعتبر ذلك حالة تبشيرية وثنية أكثر من كونها تدل على الإشراك بالله" [20]..

الهوامش:

1. ابو القاسم سعد الله –تاريخ الجزائر الثقافي ج1-1981ص 470..
2. سورة يونس :الايات 62-63-64.
3. الزمخشري-الكشاف ج2-ص223.
4. عبد الرحمان الجيلالي –تاريخ الجزائر العام ج1-بيروت1980-ص 307..
5. المرجع نفسه ص 312.
6. ابو قاسم سعد الله- المرجع السابق ص 266.
7. المرجع نفسه –ص270.
8. محمد الجوهري –علم الفلكلور –دراسة المعتقدات الشعبية –ج2- دار المعرفة الجامعية –الإسكندرية- ص 153
9. شايف عكاشة-الصراع الحضاري في العالم الإسلامي (مدخل تحليلي في فلسفة الحضارة عند مالك بن زبي-ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر-1988-ص11.
10. طه الهاشمي –تاريخ الأديان و فلسفتها-بيروت1978-ص68.
11. سعيدي صناوي-مدخل إلى علم اجتماع الأدب –دار الفكر العربي بيروت-ط1-1994-ص 207.
12. المقدم:طالب(يكتب الحرز)يحرس الضريح.
13. غمشي بن عمر –سيميولوجية اللون في التشكيل الإسلامي المنمنمات على مقامات الحريري نموذجا رسالة ماجيستر –مكتبة الثقافة الشعبية تلمسان 2001-2002-ص117.
14. التقاف :عملية سحرية توقف الفتاة عن الزواج.
15. نينا جميل-الطعام في الثقافة العربية –الطبعة الأولى –نيسان-1994ص129.

16. ثريا التيجاني–دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائري–وادي سوف نموذجا–دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع –الجزائر–ط1–1998–ص50.
17. مانفرد لوركر–معجم المعبودات و الرموز في مصر القديمة –تر:صلاح الدين رمضان مراجعة الدكتور محمد ماهر–مكتبة مدبولي–القاهرة–ط1–2000–ص231.
18. محمد شلتوت –الفتاوى،دراسة لمشكلات المسلم المعاصر في حياته اليومية العامة ،دار الشروق –القاهرة–ط11–1982 ص194–195.
19. احمد شهاب الدين بن احمد نور الدين الزوي القادري المرشدة اللطيفة لزائر الأضرحة الشريفة،الشركة العامة للورق و الطباعة ليبيا–1997ص 22–23.
20. نور الدين طوالبي –الدين و الطقوس و التغيرات تر:وجيه البعيني–منشورات عويدات –بيروت باريس –ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ط1–1988ص95.